

الفتوح الإسلامية

وأثرها في تقدم المدنية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

إذا حاولنا أن نذكر في هذه الكلمة ما كان للحكومات الإسلامية من أثر في تقدم المدنية ، لم يكن ذلك إلا تكراراً لأمر قد فرغ منه منصفو المؤرخين شرقيين وغربيين اتسمت رقعة الإسلام حتى زادت في السعة على الأباطورية الرومانية . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أول من وضع أساس السياسة الخارجية للعرب ، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والايان برسائه ، وغزى بلاد الروم وحارب الفساسنة على حدود الشام لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وتتلوا أحمابه . وقد جهز قبل وفاته حملة لغزو أطراف الشام . غير أن وفاته قد حالت دون إنفاذها . ولما ولي أبو بكر الخلافة شزع في إتمام هذا الفتح ؛ وجاء بعده عمر فعمل على توسيع رقعة الدولة الإسلامية . وإذا ما تتبعنا ما قام به الرسول من الغزوات والسرايا ، وما قام به الخلفاء من بعده من الفتوح ، وجدنا أنه كان لهذه الغزوات والفتوح أثر كبير في نهضة بلاد العرب من النواحي الاجتماعية والسياسية والأدبية وغيرها ، كما كان لها الفضل الأكبر في نشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ، ووضع الأسس والمبادئ العامة في تنظيم المعاملات بين أفراد الجماعة الإسلامية . ذلك أن الإسلام قد حرص على أوامر القرابة من أن تعيث بها الفيرة ، كما سوى بين المرأة والرجل في جميع الحقوق تقريباً ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، وحث على التمسك بالفضائل ، وعنى بأسرى الحروب أيما عناية ، وحاطهم بسياج من عدله وبرحمته . ولم يذكر لنا التاريخ أن إماماً من أئمة المسلمين أمر بقتل الأسرى ، اللهم إلا من كان يخشى خطره على المسلمين . ولا غرو فإن الإسلام قد سوى بين الناس على اختلاف أجناسهم ؛ فسوى بين الأبيض والأسود ، والبدوي والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، وبين الرجال والنساء .

انظر الى المسلمين وهم في مسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو في مكة يحججون البيت الحرام ، أو في المحاكم الشرعية في صدر الإسلام ، أنتجد فيهم من فاضل ومفضول ؟ وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك الديمقراطية التي جاء بها الإسلام ، والتي تلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التي طالما مزقت شمل العرب ، وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى »

ولقد وضع الإسلام من الأصول والنواميس ما هو كفيل بالقضاء على الاسترقاق ، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك — على ما نعلم — من شدة التمسك بهذا النظام . وبدى أنه لا يستطيع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يزيل أمراً ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء ، على أن هذا الاستيلاء لم ينفل تعبيد الطريق لألغاء الاسترقاق ، فافتى الرسول يرغب الناس في المتق . وقد أبقى عليه الصلاة والسلام الرق لسبيين : أولها : حفظ التوازن بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول كالفرس والروم ، حتى يستفيد العرب من أسرى الأمم . كما استفادت هذه الأمم من أسرى العرب . وثانيهما : لحماية الضعفاء من نساء أكلت الحرب رجالهم . ولو تركن وشأنهن لكن عالة على المجتمع ومصدراً للشروع على أن الإسلام ، وإن لم يجد بداً من اباحة الرق ، فانه لم يترك الأرقاء هملاً ، فقد نظم شؤونهم ، وأخذ بأيديهم في طريق الحرية . وقد وصف أحد الفرنجة معاملة الإسلام للرقيق بقوله : « لقد وضع للرقيق في الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوي عليه محمد وأتباعه نحووم من الشهور الانساني النبيل ، ففيها نجد من محامد الإسلام ما يتناقض كل الناقضة الأساليب التي كانت تتخذها الى عهد قريب شعوب تدعى أنها تعشى في ظليمة الحضارة . نعم ! ان الإسلام لم يبلغ الرق الذي كان شائناً في العالم ، ولكنه عمل كثيراً على تخمين حال الرقيق ، وأبقى الأسر ، ولكنه أمر بالرفق بالأسير . وبما يدل على صحة هذا القول أنه لما جرى بالأسرى بعد غزوة بدر الكبرى فرقمهم

الرسالة حابه وقال لهم استوصوا بهم خيرا»

عندما بسط الإسلام ظلالة خارج الجزيرة وجدنا أهل هذه
المدن المفتوحة يرحبون به بل ويحثون على اعتناقه لما فيه من
الحرية والمساواة؛ فكان العرب أثناء حكمهم بلاد فارس والشام
ومصر وغيرها من البلاد يقومون بحماية أهلها مقابل مبلغ معين ،
بدفع عن كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية ، وهي ضريبة
شخصية يدفعها أهل الذمة مقابل اعفائهم من خدمة الجيش؛
وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الإسلام؛ وكانت الأرض
ملكاً للفاحين ، غير أن العرب كانوا يتركونها للأهالي يزرعونها
على أن يؤدوا جزءاً من غلتها ضريبة عقارية تسمى خراجاً
ولما استولى العرب على بلاد فارس والشام ومصر اتخذوا
لأنفسهم طرازاً للعمارة خاصاً بهم ، يتناسب وطبيعتهم وحالة
مدينتهم؛ وقد فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطي والفارسي من
حيث الرق وجمال التنسيق والاتقان . والعرب — كما لا يخفى —
مولعون بالتقليد ، كما أنهم معروفون بالابتكار المبني على هذا التقليد؛
وهم في ذلك أشبه بالأمة الإنجليزية . كذلك عنى العرب بتخطيط
المدن وشق المجاري لتوصيل الماء الصالح للشرب إليها . فشرعوا
على أثر انتصارهم في موقعة القادسية (١٥ هـ) في تخطيط
مدينتي البصرة والكوفة ، كما أسوا على أثر فتحهم مصر
مدينة الفسطاط

وكان لاختلاط العرب بالأمة التي تغلبوا عليها أثر كبير في
تقدم المدينة . فقد بلغت النهضة العلمية أوجها في صدر الدولة
العباسية بفضل تشجيع النصور والرشيد والمأمون . فكانوا
يعثون البحوث للتحقيق عن الكتب القديمة في الكنائس
والأديرة ، وأرسل المأمون بعثات علمية إلى الهند والقسطنطينية
لنقل الكتب النفيسة ، ونشطت حركة الترجمة في ذلك العصر
نشاطاً عظيماً . فقلت الكتب الفارسية والهندية والأغريقية
إلى العربية ، من بينها فلسفة أرسطو وهندسة أقليدس وجغرافية
بطليموس ، وغير ذلك من الكتب في الطب والفلك ، وكان
من أشهر المترجمين حنين بن اسحق ، ويعقوب بن اسحق
الكندي . وقد نهج الفاطميون والأيوبيون في مصر ، وأمراء
بلاد الأندلس في الغرب نهج العباسيين . كذلك اهتم العرب
اهتماماً كبيراً بدور الكتب العامة حتى بلغ عدد المجلدات في

مكتبة القاهرة في عهد الفاطميين خمسمائة ألف مجلد ، وفي مكتبة
قرطبة أكثر من أربعمائة ألف مجلد

ولم تقتصر علوم العرب على ما نقلوه عن غيرهم . فقد فاقوا
أساتذتهم من الفرس والأغريق ، ولا غرو فقد شجع اتساع
رقعة الدولة الإسلامية وانتشار التجارة فيها على رقى علم الجغرافية .
ولا عجب فالعرب بدؤ رحل بطيقتهم . ومن أشهر الرحالة من
العرب المسعودي وابن جبير وابن بطوطة الذين طافوا الأنظار
ووصفوا الجهات المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدات ومهدوا
بذلك سبيل الكشف الجغرافي . كذلك اهتم العرب بعلم التاريخ
فوضعوا فيه المؤلفات القيمة ، كما بنفوا في الشعر والأدب . ولا
غرو فقد أثرت فيهم بلاغة القرآن ، وساعدت مظاهر الحضارة
السادية وجمال المناظر الطبيعية ، وبخاصة في بلاد الأندلس على
رقى الخيال ورقة الشعر ، كما برع العرب في فن الغناء والعزف
على الآلات الموسيقية ، وعن نبغ منهم في الموسيقى والغناء اسحق
الموصلى ببغداد ، وتلميذه زرياب بقرطبة ، حيث أسس مدرسة
للموسيقى تخرج فيها كثير من مشاهير الموسيقيين

كانت الدول الإسلامية في الشرق ومصر وبلاد الأندلس
مركز الفنون والصناعات ، ومنتار العلوم والآداب ، في الوقت
الذي كانت فيه أوروبا غارقة في بحار الجهل . وقد اتصل الأوربيون
بالعرب واتسبوا من علومهم واستفادوا من حضارتهم عن طريق
مصر والشام أثناء الحروب الصليبية التي قامت في القرن الحادي
عشر الميلادي

فقد تزح الى بلاد الأندلس طلاب العلم من أنحاء أوروبا ،
فالتحقوا بمدارسها وجامعاتها ، واتسفوا بدور الكتب الكثيرة
بها . فلما عادوا الى بلادهم نشروا فيها علوم العرب . وبلغ من
اهتمام الغربيين بالعلوم العربية أن أنشأوا في باريس في القرن الثاني
عشر الميلادي مدرسة لتعليم اللغات الشرقية ، وقد ظهر من
الأوربيين علماء تشبعوا بعلوم العرب وطرق أبحاثهم . فمخص
بالذكر منهم العالم الإنجليزي رودجر بيكون (Roger Bacon) الذي
دعا الناس الى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والاعتماد على
التجارب للوصول الى الحقائق العلمية ، فبدأ الأوربيون يحثون
العلوم بحثاً علمياً كان له أثر عظيم في قيام النهضة العلمية في أوروبا
ورقى الحضارة الغربية . وقد نقل الأوربيون العلوم الطبية عن

من مناظر الهجرة

أم سلمة*

بقلم ناجي الطنطاوي

- ١ -

(في البادية ، قبل الفجر ، أم سلمة ممتطية
بعيراً وابنها في حضنها وأبو سلمة آخذ
بخطام البعير يسوقه ، في طريقهم إلى
المدينة مهاجرين)

أم سلمة

«أبا سلم» حث اللطى فاني أخافت من القوم المكيدة والغدرا
إذا أدركونا اليوم كان نصيبنا الردى وغدت هذى الرمال لنا قبرا
وإني لا أخشى على نفسي الردى

ولا أرهب الموت الزوام ولا الأسرا

ولكن طفلي سوف يصبح إن أمت

يتيماً ، ويعسى طعم عيشته مرا

(٥) هي هند بنت سهيل القرشية المخزومية أم المؤمنين ، كانت زوج
ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد ، فلما مات عنها تزوجها رسول الله صلى
الله عليه وسلم في جمادى الآخرة سنة أربع . وكانت ممن أسلمت قديماً هي
وزوجها مهاجرا إلى الحبشة فولدت له سلمة ، ثم قدما مكة ، وهاجرا
إلى المدينة ، وفيها ولدت له عمر ودزة وزينب وقيل إنها أول امرأة خرجت
مهاجرة إلى الحبشة وأول طفلة دخلت المدينة

وحين بعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم يحفظها بعد سنتين من الهجرة
حين مات زوجها وانقضت عدتها ، اعتنقت بكبر السن والأولاد وكونها
غيوراً ، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه كبير أيضاً وذو أولاد ، ثم
قال : وأما الفيرة فأدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك ، فكان أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم يتحاورن إليها لعلهن يبرأتهن من الفيرة . وكانت
موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب ، وهي صاحبة الشورة
الباركة يوم الحديبية . توفيت على الأكثر في آخر سنة ٦١ وهي آخر
أمهات المؤمنين موتاً

أما زوجها أبو سلمة ، فهو عبد الله بن عبد الأسد المخزومي من السابقين
الأوليين إلى الاسلام ، أسلم بعد عشرة أنس ، وكان أمًا النبي صلى الله
عليه وسلم من الرضاة وابن عمته ، وروى ابن أبي عاصم من حديث
ابن عباس : أول من يعطى كتابه يبيته أبو سلمة بن عبد الأسد ، وأول
من يعطى كتابه يتباه به أخوه سفيان بن عبد الأسد

شهد بدرًا . وتوفي في سنة أربع من الهجرة بعد منصرفه من أحد ،
انتفض به جرح كان أصابه بأحد فوات مت

ابن زهر وابن البيطار ، وعرفوا بصفة خاصة طرق معالجة الجدرى
والحصبة . وطالما كان يستدعى ملوك أوروبا وأمراؤها الأطباء
من العرب لمعالجتهم . وأمس الفرنسيون مدرسة للطب في مدينة
مونبلييه (Montpellier) قام بالتدريس فيها أساتذة من بلاد
الأندلس ؛ كذلك استفاد الأوربيون من نبوغ العرب في
الكيمياء . ولا تزال بعض المركبات الكيميائية ، كالكحول
(Alcohol) والكافور (Camphor) والقلويات (Alkali) والأشربة
(Syrops) تدل على أصلها العربي

وقد أخذ الأوربيون عن المسلمين كثيراً من أنواع النبات ،
كالأرز ، وقصب السكر ، والخرشوف ، والشمش ، والبرقال
والزعفران ، وأنواع الورد والياسمين ؛ كما أخذوا عنهم الطواحين
الهوائية لطحن الغلال ، ورفع الماء ، وأقاموا أول طاحونة منها في
مقاطعة زمنديبة سنة ١١٠٥ م ، كما أقاموا غيرها في هولنده . ولا
تزال سهول بلنسية في اسبانيا تروى إلى الآن بطرق الري الفنية
التي ابتكرها العرب . وقد نقل الأوربيون عن العرب كثيراً من
الصناعات كصناعة السكر والحري والورق كما عرفوا عنهم البوصلة
التي كان لاستعمالها فضل كبير في توسيع نطاق الملاحة وتشجيع
الكشف الجغرافي . وقد نبغ العرب في الفنون الحربية وصناعة
السفن حتى أصبحوا أساتذة أوروبا في ذلك المضمار . فكانت
أساطيل الدول الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط
تغادج تحتجزها البلاد المسيحية في صنع أساطيلها . ولا يزال كثير
من الاصطلاحات العربية البحرية شائعاً على ألسنة البحارة
في جنوه حتى اليوم . من ذلك كلمة Cable المحرفة عن لفظ جبل ،
وكلمة (Darsonal) الإيطالية المحرفة عن لفظ دار الصناعة

ولم تقتصر استفادة الأوربيين من العرب على العلوم والصناعات ،
فقد تأثر طلاب العلم من الأوربيين بالأدب في اسبانيا ، وبخاصة
الشعر والموسيقى ، فنقلوا إلى بلادهم أشعار العرب وأناسيدهم
وأغانيمهم مما كان له أثر كبير في الآداب الأوربية . ولا عجب فقد
كان العرب حلقة اتصال بين المدينة القديمة والمدينة الأوربية

محمد بن القاسم حسن

الحديثة

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بالجامعة المصرية
وكلمة اللغة العربية بالجامعة الأزهرية